الرسميات

لم يكدْ انتخاب المسيو بوانكارِه يَذيع حتى أعلن رغبتهُ في خلع نير الرسميَّات وميله الى حرية المعيشة . فهو يريد أن يؤمَّ هذا المكان ، أو يختلف الى ذلك الموضع بغير عين ولا رقيب . وهو ينتغي ان يثابر على مشاطرة المجمع العلمي الفرنساوي أعمالهُ . وان يتناولَ الطعام عند أصدقائهِ اينَ شاء دون ان يحاذر لومة لائم على مخالفتهِ لقواعد العادات المرعية في الرسميَّات

إن الرغبـة التي أبداها المسيو بوانكاره على أثر انتخابهِ لرئاسة الجمهورية الفرنساوية تدلُّ على عواطف ديموقراطية حقيقية كامنة في صدر ذلك الرجل العظيم الذي أجمعت الكلمة على استحسان انتخابهِ لذلك المنصب الرفيع. وهي لعمر الحق عواطف لا يسع كلَّ ذي عقل سامٍ الاَّ اطراؤها

أجل ان الرسميات المقضي على رئيس الجمهورية الفرنساوية التقيّد بها في هذه الايام، لم تعد معدودةً شيئاً مذكوراً بالنسبة الى الرسميات الكثيرة التعقيد التي كان العمل جارياً بموجبها في العصور الماضية في قصور ملوك فرنسا . ومع ذلك فان المسيو بوانكاره أنف من الخضوع لها

وهب سلّمنا بوجوب العمل بمقتضى قواعد الرسميات في بعض الحفلات التي تقتضي تصدُّر رئيس الجمهورية فيها ، كالأعياد العمومية واستقبال رؤساء الحكومات الاجنبيـة وسفرائهم ، فلا يمكننا التسليم بضرورة بقاء ذلك الرئيس مقيداً بتلك القواعد في معيشتهِ البيتية

ففي جلسة عقدت في ٢١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٧٩٢ اقترح مانويل ان يقيَّد زعيم الجمعية العمومية بقواعدَ رسمياتٍ تُعيد الى الذهن ذكرى بعض القواعد التي كانت مرعية في عهد الملكية الملغاة . فللحال ارتفعت أصوات الاعتراض على اقتراحه وأُقيم النكير عليهِ بالصوت الحيّ . وكان من جملة مقال تاليان في ذلك الصدد :

« اني ليدهشني تباحثكم في أمر الرسميات . فلا يمكن ان يوضع موضع المناقشة

استئثار رئيس الجمعية بميزةٍ خاصة حين لا يكون مزاولاً لأعمال منصبهِ . وهو حين يكون خارج هذه الردهة يعتبر فرداً من جملة أفراد الأمة »

وكأنا بالمسيو بوانكاره يرغب، حين هو لا يزاول أعمال الرئاسة، في ان يكون حرًّا يتصرف في أعماله كفردٍ بسيط من أفراد الأمة . فكأن روح أجدادهِ قد تقمصت فيهِ فدعتهُ الى اجراء ذلك العمل الذي استوجب له الثناء

يرجع أصل الرسميات في فرنسا الى الملك فرنسيس الاول (١٤٩٤–١٥٤٧) وقد كان ملوك فرنسا قبله على غاية من البساطة في معيشتهم . فأراد هذا الملك ان يقتدي بمناظرهِ العاهل شارل الخامس في الأبهة والعظمة المورثتين عن أجدادهِ دوقات برغونيا

هذا كان بدء ادخال الرسميات الى بلاط فرنسا . وقد زادها هنري الثالث تعقيداً . وأما هنري الرابع فانهُ بذل المجهود لجعلها بسيطة . وعالج مناوأتها غير مرة . غير ان ماري المديشية زوجتهُ كانت من قوم شديدي الاستمساك بأهداب الرسميات فانتصرت لها ، وزادتها تعقيداً على تعقيد

وكانت الرسميات في بلاط لويس الرابع عشر من أصعب الامور المقضي على الانسان العمل بها . فلم يكن الملك يُجري حركة أو اشارة الاّ ويبادر الى قضاء أمره شخص من الاشخاص المعينين لتلك المهمة بموجب قانون الرسميات

فاذا نهض الملك من السرير ، قضت الرسميات على بعض الاشخاص ان ينهضوا باعباء خدمتهِ . فهذا يقدّم له قميصهُ ، وذاك سراويلهُ . واذا جلس الى المائدة ، قام على خدمتهِ جمهورٌ من رجال البلاط يقدمون له بالتناوب ألوان الطعام وأنواع الشراب

فكانوا يأتونهُ بالشواء في حفلة منظمة ؛ فيسير في المقدمة جنديان يحمل كلٌّ منهما رمحاً على كتفهِ . ويتلوهما خادم يحمل الشواء يتبعهُ أربعة من الحراس يحملون البنادق على اكتافهم . وكل ذلك لأجل قطعة من اللحم المشوي . ولو كانت هذه

الحفلة تزيد في لذة الطعام لكانت معتفرة . ولكنها كانت تذهب بلذتهِ لأن الطعام كان يبرد في اثناء ذلك

وظلت تلك الحفلات الرسمية المستهجنة معمولاً بها حتى انتقدت نيران الفتنة الكبرى فأخذت الملكة ماري انطوانت ، زوجة الملك لويس السادس عشر ، منذ قدومها الى الديار الفرنساوية، تتذمر من تلك الرسميات برسائل كانت تخطها الى والديها . ولما زُجّت في السجن بعد الثورة قالت : « اني استفدتُ شيئاً من الثورة فقد تخلصتُ من الرسميات »

فليحكم القارئ من الحادثة الآتية عما اذا كانت الملكة مصيبة او مخطئة في قولها هذا :

حدث ذات يومٍ من أيام الشتاء أن الملكة ماري انطوانت كانت تغيّر ملابسها وقد تعرّت ، واوشكت ان تلبس قميصها . وكانت عقيلة كامبان قيّمة غرفة الملكة حاملة القميص مطويًّا . فدخلت احدى نساء الشرف ، ونزعت قفازيها ، وتناولت القميص من القيّمة — ولا بدَّ من ان يعلم القارئُ ان الرسميات كانت تقضي على كل شخص يقدّم شيئاً ما الى الملك او الملكة بأن يكون عاري اليدين — فأخذت سيدة الشرف القميص وهمت باعطائهِ الى الملكة . واذا بالباب يُحكُّ — وينبغي للقارئ ان يعلم ايضاً انهُ لم يكن يجوز لأحد ان يقرع باب الملك او الملكة ، بل كانت الرسميات تقتضي ان يُحكَّ الباب قبل فتحهِ — فتح الباب ودخلت دوقة اورليان — وهنا تبدو صعوبة أخرى وهي ان قواعد الرسميات كانت تقضي بأنهُ اذا دخل على الملك أميرٌ من الأسرة المالكة ، او دخلت على الملكة أميرة من بيت الملك ، حين يكون الملك او الملكة يلبسان ثيابهما ، كان من حقّ الأمير او الأميرة ان يقوما مقام السيد او السيدة المنوط بهما أمر تقديم الملابس للملك او الملكة

دخلت دوقة اورليان ونزعت قفازيها ، وهمت بأخذ القميص من سيدة الشرف . ولكن الرسميات لم تكن تجيز لهذه السيدة اعطاءها القميص فأعادتها الى

عقيلة كامبان وهذه ناولتها للأميرة . وبينا هنّ على تلك الحال حُكّ الباب مرة أخرى ، وولجت كونتة بروفانس ؛ ولما كانت هذه الأميرة سلفة الملكة كان لها الأفضلية على دوقة اورليان فسلمت القميص اليها . وفي اثناء ذلك كانت الملكة العريانة ترتجف من شدة البرد . وكل ذلك كان لئلا تتخطى حدود قواعد الرسميات . ولما رأت عقيلة كامبان ان الأمر قد طال . وانهُ يُخشى ان تصاب الملكة بزكام من ذلك البرد ، وان قواعد الرسميات لا تدفع عنها غوائله الذميمة ، تناولت القميص و بادرت الى إلباس الملكة دون ان تنزع قفازيها ، ودون ان تحترم قبّة الشعر العالية المبنية فوق رأسها . فتبسمت الملكة لعمل عقيلة كامبان ، وان يكن قد ساءها من جهةٍ خرق حرمة الرسميات

* * *

قال الكاتب بولس لويس كوريه : ان الرسميات تصيّر الملوك عبيداً للبلاط . ولقد أصاب وايم الحق هذا الكاتب في قوله ، لأن اولئك الملوك لم يكونوا يستطيعون ان يخطوا خطوة واحدة ، أو يبدوا أدنى اشارة ، دون ان يتدخل للحال في أمرهم انسان ليس منهُ فائدة

ومما هو أغرب من ذلك ان هذه الرسميات مع صرامتها في بعض الشؤون العادية كانت في غالب الأحيان مهملة في أمور كثيرة عظيمة الأهمية

كان للملك لويس الخامس عشر عدد كبير من الخدام القائمين على خدمته في لبس ثيابهِ وعلى المائدة وغير ذلك . ولكنهُ لم يكن لديهِ خادم يوقد النار في غرفتهِ ليدفئها . وقد قال لعقيلة دي باري انهُ كان غير مرة في فصل الشتاء يضطرّ بذاتهِ الى ايقاد النار في غرفتهِ ليصطلي عليها

أقبح ما في الرسميات ان المقرّبين من الملك كانوا يضربون حولهُ نطاقاً يحول دون وصول الحقائق اليهِ ؛ فيبقى بينهُ و بين الشعب حاجزٌ حصين ، فالرسميات التي كانت تحجب حاجات الشعب وأمانيهُ عن علم الملك ، كانت داعياً الى اضرام نيران الفتن . فقد حدث في اسبانيا من الفتن ما لم يحدث في غيرها من البلدان .

ويعزى ذلك الأمر الى الرسميات التي يُعمل بها في تلك المملكة اكثر مما يُحافظ عليها عند سواهم من الشعوب

وقد نظم ڤيكتور هوغو الشاعر الفرنساوي المشهور عقد رواية حسناء سماها « روي بلاس » أدار رحى الكلام فيها على قطب الرسميات ، وما يتخللهـا من العادات التي يمجُّها الذوق السليم ، دون ان يركب مركب المغالاة ، او يتمادى في المبالغة بهذا الموضوع

ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، نورد هنا نكتتين لطيفتين تأتيان مصداقاً لما نحن في صددهِ : أمر ملك اسبانيا في خالي الحين أن يقدّموا للملكة جياداً من كرام الجياد الاندلسية لتختار منها فرساً كريماً . فانتقت منها جواداً مطهماً وركبتهُ . ولم تكد تمتطي صهوتهُ حتى جعل يرفس ، فهوت الى الأرض وبقيت رجلها معلقة بالركاب . فأجفل الحصان جامحاً ، وجرّ وراءه الملكة . وكان ذلك الأمر في عرصة القصر والملك ينظر من الشرفة ، والاضطراب والقنوط بالغان منهُ . وكان في العرصة عدد غير قليل من الخفراء ورجال البلاط ينظرون الى الملكة ولا يجسرون على الدنو منها لتمليص رجلها من الركاب لأنهُ كان محظوراً على أيٍّ من الناس ان يمسّ شخص الملكة ولا سيما رجلها

وكان ثمت فارسان اسبانيوليان ، فدفعتهما الحمية الى انقاذ الملكة ولو سامهما ذلك الأمر الى اقتحام غمرات الحمام . فقبض أحدهما على لجام الحصان وأوقفهُ ، وملص الآخر رجل الملكة من الركاب . ثم انهما برحا القصر لساعتهما مسرعين الى منزلهما ، وأسرجا جوادين ، وتركا المدينة هاربين من غضب الملك

وفقد في اسبانيا أيضاً أحد الملوك حياتهُ بسبب تمسكه وتمسك رجال بلاطهِ بالرسميات . وذلك انهُ كان للملك فيليب الثالث موقد في غرفتهِ اضرمت فيهِ النار وارتفع لهيبها . فاندلع لسانها اندلاعاً كاد يحرق وجه الملك . وحدث أن الشخص الموكول اليهِ أمر العناية بتلك النار كان غائباً . فلم يدر في خلد أحدٍ من الحضور في حضرة الملك ان يقوم مقامهُ . وظن الملك ان كرومة مقامهِ تمنعهُ الابتعاد عن تلك

النار او ابعادهـا عنهُ . ولذلك ظلّ قاعداً على عرشهِ حتى أثرت بهِ النار تأثيراً أحرق وجههُ ، وكان سبباً لوفاتهِ بعد بضعة أيام

اما الملكة فكتوريا الانكليزية فقد كانت أعقل من ملك اسبانيـا من هذا القبيل ؛ فان في عملها والكلمات التي فاهت بها في الحال التي سنبينها ، انتقاداً مرًّا لتلك الرسميات التي ما أنزل الله بها من سلطان

كانت الملكة فكتوريا ذات ليلةٍ جالسة في ردهة من ردهات قصرها وقد التفَّت حولها عصابة من الامراء والاميرات وكبار رجال المملكة . فجعل المصباح يدخّن . فنهضت الملكة وخفضت الذبالة . وكان من وراء عملها هذا دهشٌ شديد استولى على الحاضرين . فصاحت احدى سيدات الشرف : أو مثل جلالتك تتنازل بذاتها . . . فأجابتها الملكة : نعم. فلو اني قلت ان القنديل يدخّن، لكانت سيدة من سيدات الشرف قالت للحاجب : ألا ترى يا حضرة السيد ان قنديل الملكة يدخّن؟ وحينئذٍ كان هذا الاخير ينادي خادماً لاصلاحهِ . ولا يخفى ان هذا الامر يستغرق وقتاً من الزمان يمكن ان يلتهب القنديل في خلاله . ولذا قد آثرت تولّي اصلاحهِ بذاتي . . .

وقد انتسخت الرسميات أو كادت في عصرنا من قصور الملوك في بلدان أوروبا الشمالية . ففي كوبنهاغن أو ستوكهولم أو كريستيانا لا يتعجب أحد من رؤيتهِ الملك يتنزه وحدهُ في الشوارع حاملاً عصاه بيده ، أو يركب الترامواي كأنهُ من سوقة الناس . وأما الرسميات في بلدان أوروبا الجنوبية فانها لا تزال مرعية كما كانت في الماضي . وهي تعتبر ارثاً اتصل بالشعوب اللاتينية من بيزنطة

وعندنا ان أفضل شيء هو ما جرى عليهِ القوم في أوروبا الشمالية من البساطة في المعيشة . والتحرز من قيود الرسميات الثقيل . ورحم الله مرمونتل القائل «فلنهزأ بالرسميات ، وبالتربة التي أنبتتها »

الياس طنوس الحويّك

يوسف شكور باشا [1]

أيها السادة !

عادة الاعتذار عن التقصير أصبحت من مبتذلات العادات في مستهلّ كلام الخطباء. غير انكم تغتفرون لخطيب اليوم أن يجري عليها، اذ لا يرى مندوحة عنها، فيسألكم المعذرة اذا بقيَ دون المقام الذي يجب ان يكون فيهِ. كيف لا ويحقُّ لأيّ خطيبٍ ان يتهيَّب هذا الموقفَ أمام مثل هذا المحفل الحافل بوجوه البلاد أدباً وعلماً ومقاماً، ويُحجمَ إزاءَ الموضوع الخطير الذي دُعيت للكلام فيهِ. بل إنني أمام

(١) ننشر التأبين الذي لفظه منشيء هذه المجلة في حفلة الاربعين التي أقامتها جمعية المساعي الخيرية المارونية في ٢١ فبراير المنصرم تذكاراً للمرحوم المغفور له يوسف باشا شكور

هذا الجمع الموقَّر، وفي تكريم فقيدنا الجليل، لا أرى أجدر من ذلك الفقيد نفسهِ بالوقوف مؤبناً وخطيباً، يجول جولاته المعروفة، ويتدفق بفصاحتهِ المشهورة

على أنهُ اذا كانت يد الموت قد عقلَتْ ذاك اللسان الزلق، وأخمدت ذلك الصوت العالي، وأبلت ذيّاك الصدر الرحب، فلا أقلَّ من ان تسمعوا اليومَ صوتاً — ولو ضعيفاً — يندبُ تلك المناقبَ الغراء، ويرثي هاتيك الهممَ الشماء، فيترامى هـذا الصوت الضئيل الى مسامعكم، كما يترامى الصدى محمولاً على تموّجات الهواء

أيها السادة

عقدت الجمعية الخيرية هذه الحفلة، ودعتكم اليهـا، قياماً بالواجب عليها نحو رجل تفتخرُ بأن تعدَّه من أعضائها، وإحياءً لذكر فردٍ تعتزّ أمتهُ بأنهُ كان من أفرادها. ولستُ أدَّعي الإتيان على سرد حياة فقيدنا الكبير، وحياتهُ كانت حياةً عمومية عرَفهـا القاصي والداني؛ كما انني لا ابغي تعدادَ مناقبهِ وخلاله، وأنتم أعرَف بها، وما فيكم الاَّ القريب والصديق والرفيق. ولكنَّ في إعادة ذكر السلف تنشيطاً للخلف، وفي تمجيد فضائل السابقين إرشاداً وعظة للاَّحقين. وما أحوَجنا، شبيبـة اليوم، الى مثل هذه الامثال الناجعة، تستفزُّ هممنا ساعة الخمول، وتبعث فينا روحَ الإقدام وقتَ اليأس، وتضيء طريقنـا إبَّان الظلام، وترفعُ رؤوسنا الى العلى في عصر الماديات. وما أجمل المثل الذي يتجلى لنا من هذا القبيل في حياة ابن شكور، وهي صورة الاخلاص والنزاهة، وعفة

النفس ورحابة الصدر ، والإقدام والذكاء والهمة العلياء

تاللهِ ! إن من كانت هذه حياته ، يحق لأسرتهِ ، بل لأمتـه ، ان يعظُمَ في عينها مماته ، فتقدرَهُ حقَّ قدره ، وتذرف العبرات على قبره . وهذا ما تفعله اليوم أسرته ، وطائفته ، وأمته . بل يبكيهِ وطناه : وطن سلالته ، ووطن نشأته . فيحقُّ ان يُقال فيهِ ما قال شوقي في موت احد نوابغ رجالنا :

حلَّ بالأمتين خطبٌ جليلُ رجلٌ مات والرجالُ قليلُ

* * *

أيها السادة

من الصفات الكثيرة التي عُرف بها فقيدنا ، يلذُّ لي أن اقف عند اثنتين وهما : نزاهتهُ وهمته اللتان لم يختلف فيهما اثنان . وقد ورث هذه المناقب عن النبعة الكريمة التي يتحدَّر منها ، وسهر على هذا الارث الادبي الثمين سهرَ الحريص على درهمهِ . فلم يسمح بأن تمتد اليه يدٌ ، أو أن تشوبه شائبة . فجمع بين تليد المروءة وطارفهـا . وخدم مصر وأميرها خِدَماً صادقة ، كما خدمها ذووه من قبله . فان جده الأكبر ، شكور كنعان ، هاجر من جبل لبنان — وكم انبت هذا الجبل الأشم من الفروع الكريمة ! — وجاء مصر مع أخيه يوسف كنعان شكور . فدخل هذا في خدمةِ الطيب الذكر الخالدِ الأثرِ ، محمد علي باشا الكبير . فعرف ذلك النابغة قدر ابن شكور اللبناني — ومن أعظم مزايا كبار الرجال معرفة قدر الرجال — فدرَّ عليه نعماءه ، وولاَّه ادراة دار الضرب ، ثم

عهد اليهِ تنظيم جمارك دمياط ، ولا تزال آثار همته ونزاهته مدوّنة في تاريخ مصر . وقد توارث ابناؤه تلك الهمة والنزاهة ؛ ويا ما أجملَ ما تجلتا بهِ في شخص حفيدهِ — فقيدنا ، منذ درج من مهده ، حتى أُدرج في لحده . فكان هماماً نزيهاً ، وهو يوسف شكور التلميذ ؛ وكان هماماً نزيهاً ، وهو يوسف افندي شكور الموظف بالمالية ؛ وكان هماماً نزيهاً ، وهو يوسف بك شكور المراقب في الأموال غير المقرّرة ؛ كما عرفه الجميع هماماً نزيهاً ، وهو يوسف باشا شكور مدير بلدية الاسكندرية ؛ كما ظلّ هماماً نزيهاً في خطبه وكتاباته : خلتان عرف بهما يافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً

وغنيٌّ عن البيان أنّ هاتين الخلتين لا تنتجان الاّ عن فضائل جمة مستكنة في الصدر ؛ كما انهما تُنتجان فضائل جمة تتجلى بها النفس : فالنزاهة تفرض الاخلاص وسلامة النية وطهارة الطوية ؛ والهمة تفرض الذكاء وعزة النفس والميل الغريزي الى الأمور السامية . ومن هذه وتلك يتولد شرف المبدإِ والترفعُ عن الدنايا والرمي الى عظائم المقاصد . وقد برهن فقيدنا الكريم على ذلك في كل طورٍ من أطوار حياته وشهد له بذلك كلُّ من عرفه من رئيس ومرؤوس

في مدرسة ليون الكبرى ، حيث تلقى دروسه ، كان آيةً في الذكاء والاجتهاد ، حتى بزَّ أقرانه ، ونال قصبات السبق في لغة الاجانب على أبناء تلك اللغة ؛ فعاد مكللاً باكاليل الغار ، حاملاً شهادة البكالوريا العلمية

وفي نظارة المالية ، أظهر من المقدرة على العمل والدراية في الأمور ما لفت اليهِ نظر رؤسائهِ ، ففتحوا له باب التقدم سريعاً . فولجه ، وهو

على تمام الاستعداد ، وأخذ يصعد في درجات الترقي قفزاً ، حتى صار مراقباً في الأموال غير المقررة . وعرف رياض باشا ونوبار باشا الطيبا الذكر قدر ذلك الموظف النزيه النشيط ، فولّياه أمور مالية صعيد مصر

ولما صحت العزيمة على انشاء بلدية الاسكندرية المختلطة سنة ١٨٩٠ ، رأت الحكومة ان تعهد بهذه المهمة الى رجل كفوء للقيام بها ، فوقع اختيارها على يوسف شكور بك . فنظّم تلك البلدية أحسن تنظيم ، واشتهرت مقدرته ودرايته بين الوطنيين والاجانب ، حتى رأت الحكومة ان تعين مديراً لأول بلدية مصرية دولية ذاك الذي أنشأها ورتب شؤونها . فذلل ما كان هناك من الصعاب ، وأزال ما كان من العقبات . وظلّ في تلك الوظيفة عاملاً مجتهداً ، مدة اثنتي عشرة سنة . وخرج منها طاهرَ الذيل ، ناصع الجبهة ، مخلّفاً في تلك المدينة — وهي مسقط رأسه — مآثر غير دوائر تنطق الى الابد بجليل عمله وعظيم نزاهته واخلاصه

وقد يطولُ بي تعداد ما أتاه هناك من الاعمال الخطيرة والاصلاحات الجليلة ، حتى بات لا يذكر اسم الاسكندرية والاصلاح فيها الا ويُقرن باسم شكور باشا . وقد رأت تلك البلدية بعد موته ان تُطلق على أحد شوارع المدينة اسم رجلها الكبير ومصلحها العظيم . ويا نعم ما فعلت !

وفي سنة ١٩٠٣ غادر خدمة الحكومة نهائياً . على ان تلك النفس الكبيرة الناهضة أبت التمتع بالراحة التي استحقتها بعد جهادٍ طويل ؛ فتولى شكور باشا ادارة شركات مالية مختلفة . أزهرت على يده وأثمرت ؛ وكانت برهاناً جديداً على علوّ همة الرجل ، ومضاء عزمه ، وثاقب فكره .

ورأى من الواجب عليهِ ان يخدم مصر ، حتى آخر رمق من حياته ؛ فعكف على خدمتها بقلمه ولسانه . فكان ذلك الكاتب البليغ الذي لا يُجارى ، وذياك الخطيبَ الفصيحَ الذي لا يبارى . فشغل ساعات فراغهِ بتحبير تلك المقالات الشائقة في مواضيع اقتصادية وعمرانية ومالية . وكم كان له في هذا الميدان من الجولات الصادقة ، والآراء الصائبة ، التي تناقلتها صحف البلاد . وكم سمعناه في المحافل العمومية قارعاً أعواد المنابر يتدفق كالسيل الجارف ، بفصاحته السلاّبة ، وبلاغتهِ الخلاّبة . فكانت شباة قلمه كنصل الرمح أو أقوى ، وحدُّ لسانهِ كحدِّ السيف أو أمضى . وقد أخلص في خدمة سموّ اميرنا العباس ، كما أخلص جدُّه من قبل في خدمة جد الأسرة الخديوية الكريمة

شهد له بما سردتُ وعددت من جليل الأعمال وباهر الصفات كل من عرفه — وما هم بالنزر اليسير من وطنيين وأجانب . وقد ذكره اللورد كرومر في تقاريره الرسمية اكثر من مرة بالخير والثناء . ومما قاله فيه — ومثل هذه الشهادة لا يستهان بها : « ان مدير عموم بلدية الاسكندرية ، يوسف شكور باشا ، رجلٌ سوري ذو نشاط كبير ودراية عظيمة . ولا شك في ان اصلاحات خطيرة قد تمت على عهده في مدينة الاسكندرية ، ويجب عليّ أن أجاهر بأن تحريات لجنة التحقيق لم تتمكن من وجود ما يشين نزاهة شكور باشا . على أن تلك النزاهة لم تكن قط موضوع الريب »

هذا قليلٌ من كثير ، أيها السادة ، مما عرف به فقيدنا الكريم .

ولكنت استوقفكم طويلاً ، لو شئت أن أدرس حياته كموظف وكرجلٍ وكمفكر . ولذلك اكتفي بأن أقولَ بالاجمال : ان تلك الحياة كانت صفحة ناصعة البياض ، لم تخط فيها الاّ سطور الهمة والنزاهة والشهامة والمروّة

واني لاذكر ابداً آخر مرة قابلته فيها ، وكان يُعد مقالاتٍ ضافية في بعض المواضيع الاقتصادية الوطنية ، ولا أزال أرى ذالك الذكاء اللامع ، وذلك الاخلاص المجسَّم ، وهو يشرح نظريته ورأيه في ذاك الموضوع الحيوي . كما انني لاأزال اذكر آخر مرةٍ سمعتهُ فيها خطيباً ، وقد وقف يؤبن أحد عظماء رجالنا ، فكان ينادينا بأعلى صوته « الى العلى ! الى العلى . . ! » . وكأني الآن بروحه الطاهرة تشرف علينا من الأخدار العلوية وتنادي بنا « الى العلى ! الى العلى . . ! »

الى العلى ! يا سادتي . فلتكن هذه الكلمة شعاراً لنا . . الى العلى ! يا شبيبة الشرق الناهضة . فلتكن هذه الآية السامية العظة التي نستخلصها من حياة ذلك الرجل الكبير . الى العلى ، في أقوالنا وأعمالنا ؛ الى العلى ، في مقاصدنا وآمالنا ! . . .

النهر

ونهرٍ حالَفَ الأهواء حتى غدا طوعاً لها في كلّ أمرِ
اذا سرقتْ حُلى الأزهارِ ألقتْ اليهِ بهـا فيأخذُها ويجري

عبد العزيز الانصارى

(٧)